بلاغة النّظم القرآنيّ عند رواد مدرسة التفسير البيانيّ– قراءة في منهج فاضل صالح السّامرائيّ

The eloquence of the Quranic system at the School of Illustrative Interpretation-Reading in the curriculum of Fadel in favor of the Samarai

1 حمر العين أمال*
جامعة عمارثليجي، (الجزائر)، a.hameurlaine@lagh-univ.dz
2 جخدم فاطمة
جامعة عمار ثليجي، (الجزائر)، djokhdemfatima@yahoo.fr

تاريخ الارسال2023/01/05 تاريخ القبول 2023/01/14 تاريخ النشر2023/02/07

ملخص: مما لا شكّ أن مدرسة التفسير البيانيّ كان لمنهجها أثر جليّ في اكتناه خصائص التّعبير القرآنيّ واستجلاء معانيه البلاغيّة بتوظيف العلوم اللّغويّة من جهة؛ ومن جهة أخرى المنهج البيانيّ في التّفسير، و هذا ما يساهم في الكشف عن بلاغة النّظم القرآنيّ. بناء على هذا الطّرح ولوُلوج صرح البلاغة والإعجاز، نستعرض في هذه الورقة البحثيّة موضوع: **– بلاغة النّظم القرآنيّ عند رواد مدرسة التّفسير البيانيّ – قراءة في منهج فاضل صالح السّامرائيّ–**. نستشرف من خلاله الوقوف على منهج السّامرائي في دراسة التّعبير القرآنيّ بتوظيف العلوم اللّغويّة كالنّحو والبلاغة والصرف والدلالة والمعجم؛ إضافة إلى اعتماده على المنهج البيانيّ الذي تبناه في دراساته المتنوّعة؛ والإجابة عن الإشكاليات الآتية: كيف تناول السّامرائيّ النّص القرآنيّ بلاغيّا؟؛ وما هو المنهج الذي اعتمده للوقوف على الأسرار البلاغيّة للتعبير القرآنيّ، وأبعاده الجماليّة ؟. وسيحاول البحث التماس الإجابة عن كلّ ذلك، من خلال توظيف شواهد استقيناها من مؤلفات السامرائي، التي تناول فيها النظم القرآنيّ باعتباره أحد أهم وجوه الإعجاز التي تحدّى الله بها العرب في جانبه البلاغيّ.

الكلمات المتاحية: البلاغة، النّظم القرآنيّ، السّامرائيّ، منهج التّفسير البيانيّ.

Abstract: The School of Illustrative Interpretation has undoubtedly had a visible impact on the characteristics of Koranic expression and clarification of its eloquent meaning by employing linguistic sciences On the other hand, the graphic approach to interpretation, which contributes to the eloquence of the Koranic system.On the basis of this proposal and the entry into the speech of rhetoric and miracle, we wanted to see the subject: - The rhetoric of the Koranic system at the School of Illustrative Interpretation- Reading in the thought of Fadel Saleh Al Samaria -. We look forward to the Samarai's approach to the study of Koranic expression through the use of linguistic sciences such as grammar, rhetoric, drainage, connotation and lexicon; in addition to adopting the curriculum adopted in its diverse studies.

* المؤلف المرسل

The answer to the following problems: how did the Sami address the Koranic text rhetorically?; What approach has it adopted to determine the rhetorical characteristics and aesthetic dimensions of this text? The research will attempt to seek answers to these problems by using evidence from Samurai's literature; in which he addressed the Koranic texts as God's defiance of Arabs, especially in his rhetorical aspect

Keywords: rhetoric, Quranic system, Samarai, graphic interpretation.

1. **مقدمة:** مما لا جدال فيه، أنّ أسرار التّعبير القرآنيّ شغلت الكثير من علماء اللّغة والتفسير، فهي بحر لا يدرك غوره، ولا تنفذ عجائبه، ومن ركب الفلك للخوض فيه لا ينهل منه إلّا ممّا أتاه الله من فضله، فحاولوا الوصول إلى أنّ مكامن الإعجاز في القرآن الكريم تتجلّى في نظمه المحكم، وتراكيبه المؤتلفة، وأن بلاغة هذا النّظم لا نصل إليها إلا بتوخّي معاني النّحو، فهي السبيل لمعرفة المزايا والخصائص التي تميّز النّص القرآنيّ عن غيره من النّصوص ولعل مدرسة التفسير البيانيّ كان لها دور مهم، واجتهادات بارزة في البحث عن بلاغة هذا النظم في ضوء منهجها البيانيّ الذي عكس رؤية مختلفة تعتمد اللّغة كأداة لتفسير النّص القرآنيّ.

ومن الباحثين المحدثين الذين سطع نجمهم في هذه المدرسة، فاضل صالح السّامرائيّ الذي تبنّى منهج التفسير البيانيّ في ظل اهتمامه بدراسة الدلالات البلاغيّة للتعبير القرآنيّ انطلاقا من اللّغة القرآنيّة ذاتها، فهو لم يخرج في دراساته عن النّص القرآنيّ، بل كان واضحا في مؤلفاته أنّ اهتمامه كان منصبّا حول التراكيب النّحويّة التي بحث فيها من وجهة بلاغيّة ليصل من خلالها إلى أسرار التّعبير القرآنيّ. وما ساعده على ذلك اعتماده المنهج اللّغويّ في التفسير، الذي أسهم في تواصله مع النّص القرآنيّ بتأملاته لمستويات اللّغة، بدءا بالكلمة وصولا إلى التركيب، فكانت له إضاءات ملفتة، ولمسات بيانيّة تهدف إلى الكشف عن دلالات ومقاصد القرآن الكريم فاتّسمت دراساته بالطابع التطبيقيّ الخالص، فنادرا ما نجده يصرّح بطبيعة دراسته أو منهجه.

بناءً على ما سبق، تُعنى هذه الدراسة بالبحث عن طبيعة النظم القرآني وأسراره البلاغيّة، عند فاضل السّامرائي من خلال جهوده التفسيرية، واستثماره لعلوم اللغة العربية، وتطبيقاتها المختلفة التي نجدها في مؤلفاته المختلفة سواء على مستوى الكلمة، أو على مستوى التراكيب، ومن هذا المنطلق ساغ لنا أن نطرح الإشكالية الأتية: ما هي الخصائص البلاغيّة للنظم القرآنيّ عند فاضل صالح السّامرائيّ انطلاقا من منهجه الذي يعنى بالتفسير البياني للقرآن الكريم؟ ونلتمس الكشف عن ذلك من خلال هذه الورقة البحثية التي تطرقنا فيها إلى طرح الموضوع في شقين: جانب نظريّ؛ نشير فيه إلى علاقة السّامرائي بالنّص القرآنيّ من جهة؛ ومن جهة أخرى علاقته بالتفسير البيانيّ، وجانب تطبيقيّ؛ يرصد أهم القضايا التي تناولها فاضل صالح السّامرائيّ للكشف عن بلاغة النّظم القرآنيّ، كالتقديم والتأخير، والحذف وغيرها. ونوضّح هنا تأثّره بنظريّة النظم الجرجانيّة، لنستعرض في الأخير السّمات والخصائص التي تميّز بها منهجه البيانيّ في التفسير بهدف الوصول إلى المقاصد والدلالات، والكشف عن المعنى.

2. التفسير البيانيّ:

المقصود بالتفسير البياني، هو التفسير الذي يبيّن أسرار التركيب في التّعبير القرآنيّ، وهو جزء من التّفسير العام إذ يحظى بالعناية على بيان أسرار التّعبير، كالتقديم والتأخير، والذّكر والحذف واختيار لفظة على أخرى[1] وكما ترى عائشة عبد الرحمان– المعروفة ببنت الشاطئ– أن هذا المنهج المختلف في إجراءاته بزغ مع الأستاذ أمين الخولي، وهو ما ذكرته في قولها: "لا يتجاوز فهم النّص القرآنيّ على نحو ما كان يفعل المفسّرون من قديم، حتى جاء شيخنا " الأستاذ أمين الخولي" فخرج به عن ذلك النّمط التقليديّ، وتناوله نصّا لغويّا بيانيّا على منهج أصله وتلقّاه تلامذته وأنا منهم.[2]

1.2. السّامرائيّ و التفسير البيانيّ:

اتسمت مؤلفات السّامرائيّ بأنها ذات طابع بيانيّ ولمسات فنية صاغها وفق منهج عرف بأنه منهج التّفسير البيانيّ، و كان جلّ اعتماده عليه، متبحّرا فيه فنجده يسوق تفسيرات بيانيّة لكثير من النصوص القرآنية في قمة الإبداع والتميز، مما أثر أن نصفه بالمفسّر البيانيّ.[3] حيث تحدّث السّامرائيّ عن أهمية استثمار العلوم اللّغوية في دراسة النّظم القرآنيّ واكتناه معالمه وأسراره الجماليّة في حديث له عن الكيفيّة التي يصل بها الباحث إلى الإحاطة بالتفسير البيانيّ للقرآن الكريم، من خلال الكشف عن أسرار التراكيب في التعبير القرآنيّ. يقول: "إن المتصدّي للتفسير البيانيّ يحتاج إلى ما يحتاج إليه المتصدّي للتفسير العام إلا أنّ به حاجة أكثر إلى الأمور الآتية:[4]

التبحّر في علم اللغة.

التبحّر في علم التّصريف.

التبحّر في علم النّحو.

التبحّر في علم البلاغة.

إن هذا الطّرح الذي قدّمه السّامرائي يعكس مدى أهمية هذه العلوم اللّغويّة في التقرّب من النصّ القرآنيّ، وفهم أسراره، وتفسير آيه؛ فهو إشارة إلى أنّ التفسير البيانيّ مختلف عن التفاسير الأخرى كما نراها في الكتب التراثيّة، ذلك أن على أيّ دارس لكتاب الله تعالى أن يتسلّح بعلوم اللّغة العربيّة، و يرى فاضل صالح السّامرائيّ أنّ أهميّة النّحو والبلاغة مميّزة في البحث اللّغوي، فهما الطريق الذي يقود إلى الكشف عن المعاني والدلالات والمقاصد التي تحملها آيات الله تعالى، وينظر إلى أهميّة العلمين– النحو والبلاغة– من خلال:[5]

رأيه بأنّ النّحو هو المعيار الذي يتحكّم في صحة الكلام، وبه يستقيم، وهذا هو الهدف الأساسيّ من وضعه خوفا على اللّغة من اللحن، ذلك أنّ تغيير الحركة قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فلو غيّرت الحركات في

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. [فاطر:28]، لفسد المعنى، وأصبح كفرا. والعياذ بالله، وهذا يؤكد على أن النّحو ضابط من ضوابط الصّحة اللّغويّة التي ينسج من خلالها الكلام.

أما علوم البلاغة فهي من ألزم الأمور لمعرفة الفصاحة؛ والأغراض التي يخرج إليها الكلام والفصل والوصل وأغراض التقديم والتأخير؛ والحقيقة والمجاز، وما إلى ذلك من أمور تتعلّق بالبلاغة وكما هو معروف فإنّ هذه المباحث هي أساس نظرية النّظم التي تعتبر صلة الوصل بين النّحو والبلاغة من خلال ما قدّمه الجرجانيّ من مباحث تستظلّ تحت هذه النّظرية، وكان المنطلق الأول الذي شدّه إلى فكرة النّظم هو الإعجاز القرآنيّ. والسّامرائيّ استطاع أن يستثمر بعض مباحثها في دراسته لخصائص التعبير القرآنيّ سواء على مستوى المفردة الواحدة كما فعل في كتابه " بلاغة الكلمة في التعبير القرآني" الذي نلمح فيه دراسة تطبيقيّة جادة لجماليّة الكلمة في النظم القرآنيّ، أو على مستوى التراكيب والتي استطاع من خلالها أن يستجلي جماليّة التراكيب في النّظم القرآنيّ، وهذا يوحي أنّه كان يراعي في دراساته البيانية "معاني النّحو" ما جعل منهجه اللّغويّ يوصف بأنّه منهج التفسير اللّغويّ البيانيّ للقرآن الكريم من خلال توظيف علوم اللّغة، ونجد هذا واضحا في بعض كتبه الأخرى مثل "لمسات بيانية" و"التعبير القرآني"، و"بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ".

2.2 السّامرائيّ والتّعبير القرآنيّ:

سخّر الله تعالى العقل للإنسان، جعل التّفكير في خلقه وملكوته ومعجزاته سمته الأساسيّة فبحث وتأمل في أسرار الكون والمخلوقات، قال تعالى: ﴿**وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾، [الذاريات :21]. وما كان الله ليذر هذا الإنسان دون أن يمدّه بقبس من الوحي بين فترة وأخرى يجعله ينقاد إلى معالم الهدى ليسلك عن بصيرة سبل الحياة، وحتى يعترف بعجزه ويمتثل للأمر المنزّل عليه ويعلم أنه ليس الوحيد الأقوى في هذا الكون ويؤمن بقدرة عليا فوقه، إليها يرجع الأمر كله، هي قوة الخالق جلّ وعلا.[6]

لقد أيقن السّامرائيّ هذه الفكرة أثناء محاولاته سبر أغوار النّص القرآنيّ تركيبا ودلالة ومعان وهذا من خلال النظر والتعمّق والتدقيق والموازنة بين آياته، وانتهى إلى حقيقة مسلّمة مفادها أنّ هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر، وأنه لو اجتمع أوّلهم وآخرهم لما وصلوا إلى إعجازه.[7]

لقد تحدّى الله به العرب، حتى في قليله يقول عز وجلّ : ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾.[هود: 13]، فكان التحدّي بعشر سور من مثله، فلما انقطعت الحجّة، أقام عليهم الحجّة في سورة واحدة، قال تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾. [البقرة: 23]. يقول السّامرائي في كتابه التّعبير القرآنيّ: " فقد كنت أسمع من يقول: إن القرآن معجز وإنّه أعلى كلام وإنه لا يمكن مجاراته أو مداناته وأن الخلق لو اجتمعوا على أن يقولوا مثله ما استطاعوا، وقد قرأت في كثير من الكتب نحوا من هذا القول.

وكنت أرى فيه غلوّا ومبالغة. دفع القائلين به حماسهم الدينيّ وتعصّبهم للعقيدة التي يحملونها.[8] ولعلّ هذا الحكم الذي وضعه دفعه إلى دراسة النّص بنفسه، ليبحث عن سبب ذلك الاهتمام الكبير بالإعجاز القرآنيّ، يقول: " ثم قرّرت أن أدرس النّص القرآنيّ بنفسي، فبدأت أجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التّعبير، والتّقديم والتأخير، والذّكر والحذف، وما إلى ذلك من أمور لغويّة وبلاغيّة، وأفحصها فحصا دقيقا فراعني ما رأيت من الدّقة في التّعبير والإحكام في الفنّ والعلوّ في الصّنعة. وجدت تعبيرا فنيّا مقصودا حسب لكلّ كلمة فيه حسابها بل لكلّ حرف بل لكلّ حركة.[9]

فالنّص القرآنيّ نصّ معجّز في جميع نواحيه، ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾.[الإسراء: 88].و ارتبط السّامرائيّ بالنّص القرآنيّ ارتباطا وثيقا، ونلاحظ ذلك من خلال مجموعة مؤلفاته التي تناول في مواضيعها كل ما ما يتعلّق بالقرآن الكريم، من تراكيب لغويّة، وأسرار بلاغيّة وسمات دلاليّة وخصائص صوتيّة وصرفيّة، حتى أنّ كثيرا منها حوت عناوين مرتبطة بالنّص القرآنيّ مثل كتابه،" لمسات بيانيّة من نصوص التّنزيل"؛و" على طريق التّفسير البيانيّ"؛ و"أسرار التّعبير القرآنيّ".

ونجد أنّه يدرس في هذه المؤلّفات، المسائل التي تساعدنا على فهم النّص القرآنيّ فهما يثير في النّفس الرغبة في تفسير أياته، والتأمّل في تراكيبه، والاجتهاد في الكشف عن أسراره، ومقاصده، فالقرآن الكريم خطاب للنّاس له مقاصد شرعيّة، إلى جانب خصائصه الفنيّة التي تميّزه، يقول: " إنّنا ندلّ على شيء من مواطن الفنّ والجمال، في هذا التّعبير الفنيّ الرفيع، ونضع أيدينا على شيء من سموّ هذا التّعبير ونبيّن أن هذا التّعبير لا يقدر على مجاراته بشر، بل ولا البشر أجمعون، ومع ذلك لا نقول: إن هذه مواطن الإعجاز، ولا بعض مواطن الإعجاز وإنّما هي ملامح ودلائل، تأخذ باليد، وإضاءات توضع في الطريق، تدلّ السّالك على أنّ هذا القرآن كلام فنيّ مقصود، وضع وضعا دقيقا ونسج نسجا محكما فريدا، لا يشابهه كلام، ولا يرقى إليه حديث، قال تعالى: ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين**﴾.[الطور: 34].

تعدّدت دلالة مصطلح النّص القرآنيّ عند السّامرائيّ؛ فتارة نجده يسميه النّص القرآنيّ، وتارة أخرى التّعبير القرآنيّ، والتّنزيل أو الخطاب القرآنيّ، وجميعها تصبّ في فلك واحد، يقصد به القرآن الكريم. وهذه المسمّيات إنّما تعدّدت على حسب سياقات الكلام، فالقرآن الكريم هو نصّ من النّاحية اللّغوية معجّز في تراكيبه ودلالته وبلاغته؛ وهو تعبير يجمع بين المعاني المختلفة والدلالات المتنوّعة؛ وهو وحي منزّل من عند الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، وهو خطاب موجّه للنّاس أجمعين، ويكون بهذا قد جمع مواطن الإعجاز وتحدّى بها الخطباء والبلغاء في لغتهم.

أما تسمية الإعجاز، فيرى السّامرائيّ أنّ دراسته تصب في البحث في التّعبير القرآنيّ لأن الإعجاز له شأن عظيم ، وهو أمر متعدّد النّواحي متشعّب الاتجاهات، ومن المتعذّر أن ينهض لبيانه شخص واحد ولا حتى جماعة في زمن ما مهما كانت سعة علمهم واطّلاعهم، وتعدّد اختصاصاتهم، إنّما هم يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآنيّ في نواح متعدّدة حتى زمانهم هم.[10] يقول: "كلّما أمعنت النّظر وأعملت الفكر ازددت يقينا أنّ هذا القرآن لا يمكن إلّا أن يكون تنزيلا ممن خلق الأرض والسّماوات العلى".[11]. ويقول في موضع آخر:"إنّ إعجاز القرآن متعدّد النواحيّ متشعّب الاتجاهات ومن المتعذّر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآنيّ شخص واحد ولا حتّى جماعة في زمن ما مهما كانت سعة علمهم واتساعهم."[12] ويرى أنّ التعبير الواحد قد ترى فيه إعجازا لغويّا جماليّا وترى فيه في الوقت نفسه إعجازا علميّا، أو إعجازا تاريخيّا، أو إعجازا نفسيّا، أو إعجازا تربويّا أو إعجازا تشريعيّا وغير ذلك. ففي الإعجاز اللغويّ مثلا يأتي اللغويّ، ليبيّن مظاهر إعجازه اللّغويّ، وأنّه لا يمكن استبدال كلمة بأخرى ولا تقديم ما أُخّر، ولا تأخير ما قُدّم، أو توكيد ما نزع منه التّوكيد، أو عدم توكيد ما أكّدَ.[13]

2. علاقة النظم القرآني بالبلاغة في فكر السامرائي:

يعتبر النظم إعجاز القرآن التي تناولها البلاغيون منذ نزوله، حيث كثرت التساؤلات حول أسرار هذا النظم، وكثر التأليف حوله، بعد أن اختلف الكثير حول مزية اللفظ عن المعنى، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني، فمسيرة النّظم في التراث العربيّ القديم، تؤكد بأنّه لم يصل إلى النضج الذي بلوره كنظريّة إلا بارتباطه بالقرآن الكريم، وجلّ المؤلفات التي عنونت ب (نظم القرآن) لم ترق إلى الوصف العلمي الدقيق الذي يبرز ماهية النظم وآلياته، ومراحله فكانت أحكاما ذوقيّة غلبت الجانب الديني على العقليّ، إلى أن وصلت الدراسات إلى عبد القاهر الجرجاني والتي نضجت على يديه ، في كتابه (دلائل الاعجاز) الذي وصل فيه بطريقة عقلية إلى النظم.[14]

لقد أولى **عبد القاهر الجرجاني** أهمية لنظرية (النّظم)التي جسّدها في كتابيه، (دلائل الإعجاز) (وأسرار البلاغة). وطبيعة النّظم تتمثّل في(تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض)،[15]وقد أفرد لها الكثير من التحليلات والأفكار التي يحاول أن يرسّخها في دراساته للّغة العربية، وتتجلّى معالم هذه النّظرية في توخيّ معاني النّحو، فالعلاقات النّحوية تنطوي على وضع كل كلمة في موضعها، وبذلك تتميز بدلالات ومعان جديدة، يقول: (إعلم أنّ ليس(النّظم) سوى أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النّحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها).[16]

ويذهب الكثير من الباحثين إلى أن الدرس النّحوي يجب أن يقوم على كشف الروابط بين اللّفظ والمعنى وإيضاح الصّلات بين الصورة والمضمون، وإدماج دراسة النّص اللّغوي في نحوه وإعرابه، مع الدلالات البيانية وما توحيه من صور بلاغية، وضمّ فصول البلاغة إلى النّحو، والمتأمّل في كتب السّامرائيّ يجد أنّه بحث كثيرا من

القضايا التي تربط بين النّحو والبلاغة، خاصة في أبواب علم المعاني كالتقديم والتأخير، الحذف والذكر والخبر والإنشاء. حتى أنه يرى بأنّ البحث في التركيب من جهة –إفادته معنى المعنى، يلازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف الحال في تراكيب البلغاء– هو الذي يتكفّل بإبراز محاسنه علم المعاني.[17]

وعلم المعاني، من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث بلاغيّة تتّصل بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير؛ أو ذكر وحذف؛ أو تنكير وتعريف؛ أو قصر؛ أو فصل ووصل أو إطناب وإيجاز.[18] وهذا هو منطلق نظرية النّظم. والأثر الذي يحدثه علم المعاني في بلاغة القول يتولّد من أمرين اثنين هما: "بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السّامعين؛ والمواطن التي يقال فيها، والمعاني المستفادة من الكلام ضمنا بمعونة القرائن ومنه فإنّ مباحثه من شأنها أن تبيّن لنا وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين وبالتالي فإنّ الكلام لا يكون بليغا حتى بلائم المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السّامع الذي ألقي عليه".[19]

ونجد في مؤلفات السّامرائيّ عدة قضايا يستثمر فيها مباحث نظريّة النظم، وجميعها تصبّ في علم المعاني وكلها تنبع من ركيزة نحوية، فيما يعرف عند اللّغويين ب (معاني النّحو) ومنه فالمراد بالتركيب النّحوي والعبارة اللّغوية، لا يقصد منها معانيها الظّاهرة، ولا دلالتها الأولى، ولكن لهذه التراكيب والمباحث في البلاغة شأن فالمعاني الإضافيّة التي تدلّ عليها التراكيب هي المرادة، وهي موطن البلاغة، ومحلّ بحث البلاغيين[20].

1.2 علاقة التّفكير البلاغيّ بالتفسير البيانيّ عند السّامرائيّ:

إن أهم ما يميز السامرائي في دراساته اللغوية المختلفة أنه بحث في أسرار التعبير القرآني اعتمادا على اللغة ذاتها بلمسات بيانية، ولمحات فنية تجذب الباحث أو الدارس إلى تذوق النص القرآني تذوقا فنيا من خلال اللغة، حيث جمع بين مفاتيح اللغة وأدواتها الإجرائية، وبين منهج التفسير البياني الذي يظهر بلاغة هذا النظم وأسرار إعجازه، ونجد أن أهم علمين وظفهما السّامرائي لاستكشاف ذلك هما علمي النحو والبلاغة، فدرس مباحث تربط العلمين لدراسة الدلالات المختلفة، وكل هذه المباحث تجتمع تحت ظل علم واحد نشا في أحضان النحو والبلاغة واستمد منهما أليات وهو (علم المعاني)، وهذا ما نجده عند السّامرائيّ الذي جمع بين النّحو والبلاغة، وطبق ما طرحته نظريّة النّظم من قضايا، فنجده متأثّرا بعبد القاهر الجرجانيّ بشكل كبير، فامتازت دراساته بالطابع البيانيّ، خاصة في دراسته لعلم المعاني.

فمن بين مباحثه التي اهتم بها اللّغويون للكشف عن أسرار التركيب القرآنيّ أحوال الجملة العربيّة فالجملة هي أهم عنصر يهتم به النّحويّون والبلاغيّون على السّواء لأنّها البنية الأساسيّة التي يتشكّل فيها الكلام. باعتبارها كلمات مؤتلفة تفيد معنى. والجملة العربية كما يرى –النّحاة– تتألّف من ركنين أساسيّين، هما المسند والمسند إليه، وهما ما لا يستغني أحدهما عن الآخر ولا يجد المتكلّم منه بُدًّا. ويرى السّامرائيّ أنّ "المسند إليه هو

المتحدّث عنه، ولا يكون إلّا اسما؛ في حين يعتبر المسند هو المتحدّث به ويكون فعلا واسما وهذان الركنان هما عمدة الكلام وما عداهما فضلة أو قيد."[21]

أما علماء البلاغة فأخذوا المصطلحين، واهتموا بالعلاقة الإسناديّة، وبنوا عليهما دراساتهم في علم المعاني، فانحصرت في المسند والمسند إليه، وما يتبعهما من ذكر وحذف؛ وتقديم وتأخير؛ وقصر وغيرها.[22] وهذه القضايا مثّلت صميم البحث البلاغيّ عند السّامرائي، فنجد أنّها من أبرز ملامح منهجه البيانيّ حيث خصّها بأبواب عديدة، متفرّقة في ثنايا كتبه، ويمكن أن نجمل أهمّ هذه الأحوال فيما يلي:

بلاغة التّقديم والتّأخير:

من الملاحظ أنّ السّامرائيّ في موقفه من التّقديم والتّأخير عن يؤكد على آراء القدماء، فهو يرى بأنّه يقع في كلام العرب لمعان كثيرة كالعناية والاهتمام، ويردّ وقوعه إلى المعنى والسياق الذي برز فيهما يقول: "وقد جعل النّحاة رتبا بعضها أسبق من بعض، فإن جئت بالكلام على الأصل لم يكن من باب التقديم والتأخير، وهذا هو الأصل في الكلام العربيّ فالتقديم إمّا يكون بحسب الأصل، أو بالعدول عن الأصل للعناية والاهتمام".[23] وقد اعتنى السّامرائي بهذا الباب وتوسّع فيه، واختصّه بدراسة شاملة، لا تقلّ أهمية عن الدراسات التي سبقته، ويمكن أن نجمل مواقفه من التقديم والتأخير فيما يلي[24]:

- الأصل في التّقديم والتّأخير أن يكون للعناية والاهتمام.
- مواطن العناية والاهتمام تختلف بحسب المقام، لهذا تختلف مواطن التّقديم والتّأخير.
- ليس الغرض من الاهتمام تقديم ما هو أفضل وأشرف، قد يكون المقدّم هو فعلا هو أصل اهتمام المتكلم.
- مراعاة المعاني قد تستدعي التّقديم والتّأخير.
- الحاجة إلى التّقديم والتّأخير قد تكون للتوسّع في الكلام .

إنّ هذه المواقف التي عرضناها تعكس نظرة السّامرائيّ إلى ظاهرة التقديم والتأخير في اللّغة ذلك أنّ تقديم لفظ على لفظ أو تأخيره لا يستدعي بالضرورة أن يكون هنالك أفضلية مطلقة بينهما، وقد بيّن هذا الرأي من خلال تطبيقاته على آي القرآن الكريم. فالمتأمل في مصنّفاته يجد أنّه يولي باب التّقديم والتّأخير اهتماما، خاصّة في دراسته لبعض الآيات القرآنيّة التي بحثها أثناء محاولته لكشف مواطن البيان في نصوص التنزيل . ويمكن دراسة ظاهرة التقديم والتأخير عند السّامرائيّ من خلال بعض التطبيقات التي قدّمها في كتبه من ذلك:

يرد التقديم في كثير من المواضع، وهذا يرجع إلى غاية المتكلم ومراده ، فقد يكون من باب الاختصاص وبيان أهمية الشيء، ومراعاة ما يقتضيه السياق. والقرآن الكريم بما أنّه كلام الله تعالى، فقد عكف الكثير من

الدارسين على دراسة مواطن التقديم والتأخير في آياته الكريمة، وهذا لما له من خاصّية تميزه عن كلام العرب وقد أورد السّامرائيّ الكثير من الشواهد في هذا الباب منها قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾. [الفاتحة: 5-6] ؛ فالملاحظ هنا تقديم المفعول به (إياك) على فعل العبادة، وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية، فلم يقل: (إيانا إهْدِ).كما قال في الأولين؛ وقد رأى السّامرائيّ أن سبب هذا التقديم، هو أنّ العبادة والاستعانة مختصّتان بالله تعالى، فلا يعبد غيره ولا يستعان إلا به[25]. ونجد مثل هذا التقديم على فعل الاستعانة في قوله تعالى:﴿**وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾،[إبراهيم،1]؛ وقوله في سورة الأعراف: ﴿**عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف: 89]، وقوله عز وجل: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾. [هود، 88]؛ هنا قدّم الله تعالى في هذه الآيات الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، وذلك لأن التوكّل لا يكون إلا على الله وحده، والإنابة ليست إلا إليه.[26]

و في موضع آخر من سورة الكهف، يتحدث عن مواطن التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**﴾. [الكهف: 26]. حيث قدّم الله تعالى في الآية السّابقة البصر على السمع، وهو تقديم يحمل في طيّاته معان عميقة فكلام القرآن فيه من الترتيب المحكم لمفرداته ما يجعله يتميّز عن بقية الكلم، ولكن العلّة من وراء هذا التقديم هو أنّ الكلام خاصّ بأصحاب الكهف الذين فرّوا من قومهم ،ولجؤوا إلى الكهف؛ لئلّا يراهم أحد، لكنّ الله بصير بعباده، ويراهم في ظلمات الكهف، ويرى تقلّبهم ذات اليمين وذات الشّمال، وهذا المعنى لا يتجسّد إلّا من خلال تقديم البصر عن السّمع، فهم في مجال الرؤية.[27]

و في مقام آخر قدّم البصر على السّمع في قوله تعالى: ﴿**وَلَو تَرَىٰ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَا أَبصَرنَا وَسَمِعنَا فَٱرۡجِعنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾. [السجدة: 12]. وفي هذا التقديم للبصر اعتبار آخر وضرورة اقتضاها التعبير القرآني، ذلك أنّ الرؤية متّصلة بالبصر، ولما قالوا ربّنا أبصرنا وسمعنا، أفهّم لما كانوا في الدنيا، كانوا يسمعون عن جهنّم أمّا الأن فهم أبصروه، ولهذا التقديم أثر آخر في المعنى من وجهة نظر السّامرائيّ، إذ أفاد كله بيان أهمية الشيء، فمن البديهي أنّ البصر يفوق السّمع في الأهميّة لأن السّمع قد يدخل في باب الشكّ أما الإبصار والمشاهدة فهما حال اليقين.[28].

كما تحدّث السّامرائيّ عن التقديم والتأخير في شبه الجملة العربية المتعلقة بالظرف وحرف الجرّ ومجروره، والتي تأتي في التركيب بصور متعددة فقد تتصدّر الكلام، كما قد تتأخر وكلّ هذا خدمة للمعنى المراد إيصاله، يقول السّامرائيّ: "إن أغراض تقديم الجار والمجرور لا تكاد تختلف عن غيرها من أغراض تقديم المفعول والحال والظّرف ونحوها ومدار كل ذلك هو العناية والاهتمام"[29]، ومن قبيل ذلك، قوله تعالى: ﴿**ومَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى**

ٱللَّهِ وَقَد هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصبِرَنَّ عَلَىٰ مَاءَاذَيتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَل ۡيَتَوَكَّلِ ٱلمُتَوَكِّلُونَ﴾،[إبراهيم:13] حيث تقدّم الجار والمجرور (على الله)،وهذا على معنى الاختصاص.[30]

ومن الشّواهد التي ذكرها السّامرائيّ عن تقديم الجار والمجرور في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**قَد أَفلَحَ ٱلمُؤمِنُـون ٱلَّـذِينَ هُـم فِـي صَـلَاتِهِم خَٰشِـعُونَ وَٱلَّـذِينَ هُـم عَـنِ ٱللَّغـوِ مُعرِضُـونَ وَٱلَّـذِينَ هُـم لِلزَّكَـوٰةِ فَٰاعِلُونَ**﴾.[المؤمنون:1-4].

فمثل هذا العدول في ترتيب الجمل يحيل إلى معنى عميق، وهذا دائما للعناية والاهتمام فالصّلاة قدّمت لأنّها أهمّ ركن في الإسلام، لدرجة أنّ تاركها كافر هادم للدّين، ولو قدّم الخشوع لفاق الصّلاة أهمية[31]، كما قدّمت لفظة(اللّغو) لغرض الاهتمام والحصر، فالمقام يستوجب تقديم المعرَض عنه لا الإعراض، وجاء تقديم (الزّكاة) في قوله: (والذين هم للزّكاة فاعلون) ليفيد الاهتمام والعناية والقصر[32] لهذا فالتقديم هنا ليس لفواصل قرآنية، وإنّما يرجع للاهتمام والعناية والحصر.

بلاغة الحذف والذّكر: يعتبر باب الحذف والذكر من أشهر أبواب علم المعاني، حيث يعدّه القدماء ملمحا من ملامح الجمال في كلام العرب؛ لأنه يمثل مستوى رفيعا من مستويات البلاغة، ويراه الجرجاني موطنا من مواطن الجمال، وسرّا من أسرار العربية، **حين تحدّث عن** جماليّة هذه الظّاهرة اللّغوية في قوله: "الحذف هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنّك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تبن".[33]

واعتبر السّامرائيّ الحذف موطنا من مواطن القوّة والفنّ والجمال في عدة مواضع منها قوله: «وقد يحذف في التعبير القرآنيّ لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السّياق، فقد يحذف حرفا أو يجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف كما فعل لغرض بلاغي نلحظ فيه غاية الجمال والفن».[34].ويرى أنّ الحذف والذّكر يقعان في القرآن الكريم بحسب ما يقتضيه السّياق، أو المقام، وضرب أمثلة كثيرة على ذلك، منها إشارته في حذف الحروف الى الاقتطاع من الفعل بإسقاط حرف من حروفه وذلك في قوله: «قد يحذف في التعبير القرآني من الكلمة نحو(استطاعوا) واسطاعوا) (وتتنزّل)و(تنزّل)، (وتتوفّاهم) و(توفّاهم)، و(لم يكن)و (لم يكُ) وما إلى ذلك، وكل ذلك لغرض وليس اعتباطا فالتعبير القرآني تعبير فنيّ مقصود.كل كلمة بل كل حرف إنّما وضع لقصد».[35]

وقد ضرب عدّة أمثلة لهذا الاقتطاع، منها قوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**﴾ [الكهف،97]؛ وذلك في السّد الذي صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنّحاس المذاب، حيث حذفت التاء في كلمة (استطاعوا)، في الأولى وذكرت في الثانية، قال السّامرائيّ في هذا الموضع: "وقد ذكرنا أنّ الصّعود على هذا السدّ أيسر من إحداث ثقب فيه لمرور الجيش فحذف من الحدث الخفيف، فقال: (فما اسطاعوا أن يظهروه) بخلاف الفعل الشاقّ الطويل، فإنّه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغة له، فقال: (وما استطاعوا له نقبا)

فخفّف بالحذف من الفعل بخلاف الفعل الشاق الطّويل، ثم إنه لما كان الصعود على السّد يتطلب زمنا أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث."[36] ومنها كذلك قوله تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**﴾، [القدر:04]. وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾، [الشعراء،22:-222].فقال في هذه الآيات: (تنزّلُ)، في حين قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾. [فصلت: 30].

ففي أيتي القدر والشعراء قال: (تنزّلُ)، بحذف إحدى التائين، في حين قال في سورة فصلت: (تتنزّل) دون حذف. يرى السّامرائيّ بأن التنزّل في هذه الآية من سورة فصلت أكثر من الآيتين الأخريين؛ ذلك أن المقصود منها أن الملائكة تتنزّل على المؤمنين عند الموت لتبشّرهم بالجنة وهذا يحدث كل لحظة على مدار السنة، حيث تتنزّل الملائكة على كل مؤمن مستقيم لتبشّره، فأعطى الصّيغة كاملة للفعل دون حذف شيء منه.أما آية الشعراء فإنّ التنزّل فيها أقل، لأن الشياطين لا تنزل على كل الكفرة، وإنما تنزّل على الكهنة أو قسم منهم، وهم الموصوفون في قوله: ﴿**تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾، ولا شكّ أن هؤلاء قليل بين الناس لهذا حذف إحدى التائين.[37]، وكذلك في سورة القدر، فقد حذفت إحدى التائين، وهذا ليبين أن التنزّل كان قليلا لأنه في ليلة واحدة وهي (ليلة القدر)، عكس التنزل الذي يحدث باستمرار على من يحضره الموت فاقتطع من الحدث.[38]

بلاغة التوكيد: يرى السّامرائيّ أنّ التوكيد وحدة فنيّة متكاملة، بالرغم من تفرّق مواطنها في القرآن الكريم، وتنوع سياقاتها حيث وردت متناسقة مع كل سياق وضعت فيه، وذكر السّامرائيّ أمثلة مختلفة ورد فيها التوكيد؛ فالقرآن قد يؤكد ب(إنّ)، أو قد يؤكد باللام، كما قد يجمع بينهما، ويوضح كذلك أنّ هذا الطرح يتناسب مع سياق الكلام فلا يصح إلّا الوضع الذي ورد فيه التوكيد، من ذلك قوله تعالى: (إنّ الله لشديد العقاب)، مؤكدا بإنّ واللام، وقوله تعالى: (والله شديد العقاب) بلا توكيد[39]

ويضرب السامرائي عدة أمثلة عن جمالية التوكيد في سورة البقرة، من ذلك قوله تعالى على لسان المتوفّ: ﴿ **وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾.[المنافقون: 10]، بذكر الياء في كلمة (أخرتني)، وقوله تعالى على لسان إبليس:﴿ **قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا**﴾.[الإسراء: 62]، بحذف الياء في كلمة (أخرتن)؛ ويرجع السّامرائيّ الاختلاف بين اللفظتين إلى اختلاف المقامين، فطلب إبليس لا يريده من أجل نفسه وإنما أراد من خلاله أن يظلّ ذرية بني أدم، ذلك أنّ طلبه لن يقدم له مصلحة، بخلاف الطلب الأول في قوله تعالى: (لولا أخّرتني)، فأريد به دفع الضرر عنه، وفيه مصلحة للإنسان.[40]

2.2 خصائص المنهج البيانيّ في تفسير القرآن الكريم عند السّامرائيّ:

كشف السّامرائيّ عن منهج لغوي متميّز ومتفرّد في الدراسة جعله من المفسّرين البيانيّين الذين استطاعوا سبر أغوار النظم القرآني، والكشف عن دلالاته، وأسرار بلاغته ،فمعروف عنه أنّه من اللغويّين الذين يهتمّون بالتواصل مع النصّ القرآنيّ عن طريق التأمل والتعمّق في مفرداته، وتراكيبه، وفي تقليب اثناء التحليل على أكثر من وجه، وذلك بتوظيف العديد من الآليات، ويمكن أن نجمل السّمات التي تميز بها منهجه فيما يلي:

- **التكامل:** تميّز منهج السّامرائي في دراساته التطبيقيّة بأنّه منهج متنوع المشارب، متعدّد المعالم، ذلك أنّه يعكس موسوعيّة هذا العالم الجليل، فنلمح تنوّعا في المنهج فيه تقارب مع الدراسات اللّسانيّة، والأسلوبيّة والبلاغيّة، وكذلك إلمامه بالتراث العربيّ، كما يجعله يتقاطع مع بعض طروحات الدراسات الحديثة، من حيث ما قدمه من جهود على مستوى الدراسات الصوتيّة والصرفيّة والنحويّةوالبلاغيّة وهذه الدراسات كانت حاضرة في تراثنا العربيّ القديم، بل إنّها أساس الدرس اللّغويّ عند العرب، كما أنّهاجزء من الدراسات الحديثة.
- **توظيف النحو لخدمة البلاغة:** إنّ السّامرائيّ في دراسته للتعبير القرآنيّ لم يقف في تفسيره عند منهج النّحو الذي يقف عند حدود الصّحة والفساد في التراكيب اللّغويّة، يل يتجاوز ذلك إلى العلاقات التي تقيمها اللّغة بين الكلمات وحتى التي تربط بين الجملة وأخرى، حيث يظهر هنا اهتمامه بمعاني النّحو التي **أبرزت** علم المعاني كجزء من علم النحو، فجمعت بينهما مباحث التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتوكيد، وغيرها.
- **الاهتمام بالمعنى:** فالسّامرائيّ يرى أن قسما من المسائل المتعلّقة بالمعنى عرض لها قسم من علم النّحو وعلم البلاغة، لكن لا يزال الكثير منها دون نظر.[41] فالمعنى هو الذي يكسب التعابير اللمسة الفنيّة التي تبرز جماليّتها، يقول السّامرائيّ: «إنّ الدارس على هذا النهج ، يشعر بلذّة عظيمة وهو ينظر في التعبيرات ودلالتها المعنويّة ويشعر باعتزاز، بانتسابه إلى هذه اللغة الفنيّة، الثريّة، الحافلة بالمعاني الدقيقة الجميلة، ثمّ هو بعد ذلك يحرص على هذه اللّغة الدافقة بالحيويّة، وهو وراء كلّ ذلك يحاول تطبيق هذه الأوجه في كلامه، ويشعر بلذة في هذا التطبيق.».[42]
- **الدراسة التطبيقية:** حيث تميزت أغلب مؤلفاته بالطابع التطبيقي في تحليله للنّصوص القرآنيّة، وهذا من خلال كثرة الشواهد، إضافة إلى منهجه التأمليّ في التحليل. إضافة إلى الأدوات الإجرائية التي يوظفها، و التي يتقاطع فيها مع بعض القدماء وحتى بعض المناهج الحديثة،واهتمامه بالسياق، وكلّ هذا يخدم منهجه الذي يعتمد التفسير البيانيّ للتعبير القرآنيّ؛ و الذي يرى بأنّه يظهر أسرار التركيب في التّعبير القرآنيّ، فهو جزء من التفسير العام تنصبّ فيه العناية على بين أسرار التعبير من النّاحية الفنّيّة كالتقديم والتأخير والحذف والذكر واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بأحوال التعبير".[43]

– **النظر في السّياق:** يعتبر السّياق من القرائن المهمة التي اعتمد عليها السّامرائي في وضع لمساته خاصة في البحث عن مواطن الدلالات، والتي تدل على المعنى، يقول عنه: «فإنّ ذلك من ألزم الأمور للمفسّر عموما وللمفسّر البياني على الخصوص، فبالسّياق تتّضح كثير من الأمور ويتضح سبب اختيار لفظة على أخرى وتعبير على أخر ويتّضح سبب التقديم والتأخير والذكر والحذف ومعاني الألفاظ المشتركة والسّياق من أهم القرائن التي تدلّ على المعنى"[44]، وضرب السّامرائي أمثلة كثيرة من القرآن الكريم، توحي بأنّ للسياق أهمية كبيرة في البحث عنده ،منها ما ورد في قصة موسى عليه السلام في سورتي البقرة والأعراف. وضرب السّامرائي أمثلة كثيرة من القرآن الكريم، توحي بأنّ للسياق أهمية كبيرة في البحث عنده ،خاصة في القرآن الكريم، حيث ذكر الله تعالى عدة ألفاظ في مواطن مختلفة، تكاد تكون متشابهة إلا أن الفروقات بينها فسّرها السياق الذي ذكرت فيه، من ذلك ذكره تعالى للفظتي .(انفجرت)و (انبجست)، في موضعين: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ**﴾ [البقرة:60]، وقوله في سورة الأعراف: ﴿**وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ**﴾.[الأعراف: 160].فذكر في سورة البقرة كلمة(انفجرت)، وفي سورة الأعراف كلمة (انبجست)، في سياقين مختلفين، رغم أنّ القصة واحدة ،و(الانفجار)غير(الانبجاس)، لأنّ الانفجار هو الانفجار بالماء الكثير والانبجاس هو الماء القليل وفي هذه الحالة يرد التساؤل التالي: أيّ العبارتين أصح؟ هذا ما أجاب عنه السّامرائي الذي يعتبر كلّا اللّفظتين صحيحة، ذلك أنّ أوّل ما انفجر كان بالماء الغزير، ثمّ قلّ بعد ذلك بسبب عصيان قوم موسى عليه السّلام فذكر الأولى في حالة التكريم والثانية في حالة الذمّ، ويرى السّامرائي أنّ كلا الكلمتين صحيحتين، إلّا أن الله تعالى اختار كل تعبير بحسب السّياق الذي ورد فيه وهو ما تقتضيه البلاغة.[45] ويرى السامرائيّ أنّ عدم النظر في السياق قد يوقع في الغلط، أو عدم الدقة في الحكم، ذلك أن أي مفردة أو حرف لا يقع في تركيب ما إلا لسبب، والسياق هو القرينة التي تدل على ذلك.

4. خاتمة:

مع نهاية هذا العمل ، يمكن القول أن فاضل صالح السّامرائيّ في منهجه البيانيّ بذل جهودا كبيرة للوقوف على أسرار التعبير القرآني، الذي نزل بلغة تملك من سحر البيان، وروعة التصوير،و بديع النظم، ما يجعلها لغة متفردة بتراكيبها ودلالاتها ومعانيها، ولعل هذه السّمات ،جعلت السّامرائيّ يقف على خصائص النّص القرآنيّ

محاولا تفسيره، بتوظّيف مختلف العلوم اللّغوية من نحو وبلاغة وصرف ودلالة ومعجم حتى يتمكن من فهم النصّ القرآنيّ وتفسير آياته والإحاطة بمعانيه، ويمكن أن نجمل أهم الخصائص التي ميّزت منهج السّامرائيّ في دراسة التعبير القرآني فيما يلي:

– منهج التفسير البياني الذي تبناه فاضل صالح السامرائي يرتكز في أساسه على العلوم اللّغوية وأدواتها الإجرائية التي تقدمها خاصة علم النحو والبلاغة والدلالة وحتى علم الأصوات وعلم الصرف، وهي أحد أهم المفاتيح التي تساعد على تفسير القرآن الكريم، لهذا نجد أنه اتبع منهجا تكامليا، كان له بعد فكريّ واضح ، وأثر كبير في الدراسات اللّغوية عنده خاصة في تطبيقاته على النّصوص القرآنيّة.

– الذي يبحث في مؤلفات السامرائي يكتشف أن الباحث كان يميل إلى التطبيق، حيث تميز بلمساته التطبيقية البحتة، متخذا من اللّغة مدخلا للبحث عن أسرار إعجاز النص القرآني البيانية، فتميّز منهجه عن غيره كما تميّزت لغته بالبساطة ما جعلها تتناسب مع مستوى القراء والدارسين. فكان من خيرة الباحثين الذين ينتمون إلى مدرسة التفسير البياني الذين يعتزّ بزادهم المعرفي الموسوعيّ.

– اهتم السامرائي بدراسة المقام أو السياق الذي يشكل لبّ الدراسات البلاغيّة، وهو أحد مداخل الدراسات البيانيّة التفسيريّة حيث لم يعزل التراكيب عن سياقاتها المختلفة، بل شكّل المقام أو السياق حلقة وصل بين فهم بنية التركيب والعلاقات النحوية التي تضمّها، أثناء تحليل النّصوص، وبين تذوّق المعانيّ والدلالات البلاغيّة التي خلفها السبك المحكم للتركيب النّحويّ.

5- الهوامش:

[1]– عبد القدوس رحمان حميد حسن، الجهود التفسيرية لفاضل صالح السامرائي، دراسة تحليلية، مرمر للطباعة والنشر، ط01، بغداد، العراق 2019م، ص129.

[2]– عائشة محمد علي عبد الرحمان المعروفة ببنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط07، القاهرة، (د.ت)، ص13.

[3]– عبد القدوس رحمان حميد حسن، الجهود التفسيرية لفاضل صالح السّامرائي، دراسة تحليلية، ص129.

[4]– فاضل صالح السّامرائي، على طريق التفسير، ج01، جامعة الشارقة، كلية الآداب والعلوم، (د.ط) 1423هـ، 2002م ص07.

[5]– المصدر نفسه، ص09.

[6]– عمار ساسي، المدخل إلى النّحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، ط01، إربد ، الأردن، 2007م، ص67.

[7]– فاضل صالح السّامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، عمان، ط4، الأردن، 1427هـ 2006م، مقدمة الكتاب.

[8]– فاضل صالح السّامرائي، التعبير القرآني، مقدمة الكتاب.

[9]– المصدر نفسه، ينظر مقدمة الكتاب.

[10]– فاضل صالح السّامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، ط3، 1423هـ، 2003م ص05.

[11]– السّامرائي، من أسرار التفسير البياني، ص05.

[12]– فاضل صالح السّامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص05.

[13]– المصدر نفسه، ص08.

[14]– ينظر: بلخير أرفيس، نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، البدر الساطع للطباعة والنشر، (دط)، الجزائر، 2016م، ص23.

[15]– وليد محمد مراد، نظرية النّظم وقيمتها العلميّة، دار الفكر، ط01، 1403هـ، 1983م، ص56.
[16]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط5، 2004م، ص81.
[17]– فاضل صالح السّامرائي، على طريق التفسير البياني، ص08.
[18]– ينظر: أحمد مطلوب، حسن البصير، البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط2، العراق، 1430هـ، 1999م ص83.
[19]– ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النّهضة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1430هـ، 2009م، ص37.
[20]– عبد الفتاح لاشين، التراكيب النّحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجانيّ، دار المريخ، (دط)، الرياض، المملكة العربية السعودية ص227.
[21]– فاضل صالح السّامرائي، معاني النحو، ج01، دار الفكر، ط1، 1420هـ، 2000م، ص14.
[22]– ينظر: أحمد مطلوب، حسن البصير، البلاغة والتطبيق، ص143.
[23]– المصدر نفسه، ص37 .
[24]– المصدر نفسه، ص37.
[25]– السّامرائي، التعبير القرآنيّ، دار عمار، عمان، الأردن، ط4، 1427 هـ،2006م، ص49.
[26]– المصدر نفسه ، ص50.
[27]– فاضل صالح السّامرائي، من أسرار البيان القرآنيّ، دار الفكر، ط1، 1430هـ، 2009م، ص116.
[28]– المصدر نفسه، ص116 .
[29]– فاضل صالح السّامرائي، معاني النحو، ج3، دار الفكر، ط1، 1420هـ، 2000م، ص105.
[30]– فاضل صالح السّامرائي، التعبير القرآنيّ، ص50.
[31]– فاضل صالح السّامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التّنزيل، ص124.
[32]– المصدر نفسه، ص133.
[33]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص121.
[34]– فاضل صالح السّامرائي، التعبير القرآنيّ، ص72.
[35]– فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في القرآن الكريم، شركة العاتك للنّشر، ط1، بغداد، 1427هـ 2006م، ص9.
[36]– المصدر نفسه، ص10.
[37]– المصدر نفسه، ص10.
[38]– المصدر نفسه، ص11.
[39]– التعبير القرآنيّ، دار عمار، عمان، الأردن، ط4، 1427هـ 2006م، ص17
[40]– فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في القرآن الكريم، ص24.
[41]– فاضل صالح السّامرائي، معاني النحو، ج01، دار الفكر، ط1، 1420هـ، 2000م، ص08.
[42]– المصدر نفسه، ص08.
[43]– فاضل صالح السّامرائي، على طريق التفسير، ص07.
[44]– المصدر نفسه، ص12.
[45]– فاضل صالح السّامرائي، على طريق التفسير البياني، ص16.

6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم
- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط5، 2004م.

- السّامرائي فاضل صالح، معاني النحو، ج1، دار الفكر، ط1، 1420هـ، 2000م.
- السّامرائي فاضل صالح، من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، ط1، 1430هـ، 2009م.
- السّامرائي فاضل صالح، معاني النحو، ج3، دار الفكر، ط1، 1420هـ، 2000م.
- السّامرائي فاضل صالح ، على طريق التفسير البياني، ج1، جامعة الشّارقة، (دط)ن 1423هـ، 2002م.
- السّامرائي فاضل صالح، بلاغة الكلمة في القرآن الكريم، شركة العاتك للنشر ، بغداد، ط1، 1427هـ، 2006م.
- السّامرائي فاضل صالح، التعبير القرآنيّ، دار عمار، عمان، الأردن، ط4، 1427هـ 2006م.
- السّامرائي فاضل صالح، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، ط03، 1423هـ، 2003م.
- أحمد مطلوب، مصطلحات بلاغية، المجمع العلمي العراقي، ط1، 1392هـ، 1972م.
- أحمد مطلوب، حسن البصير، البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق ط2، 1430هـ، 1999م.
- بلخير أرفيس، نظرية النّظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، البدر الساطع للطباعة والنشر، الجزائر، (دط)، 2016م.
- عائشة محمد علي عبد الرحمان المعروفة ببنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف القاهرة، ط07، (د.ت).
- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ، 2009م.
- عبد الفتاح لاشين، التراكيب النّحوية من الوجهة البلاغيّة عند عبد القاهر الجرجانيّ، دار المريخ الرياض، المملكة العربية السعودية، (د.ط)، (د.ت).
- عبد القدوس رحمان حميد حسن، الجهود التفسيرية لفاضل صالح السّامرائي، دراسة تحليلية مرمر للطباعة والنشر، بغداد العراق، ط01، 2019م.
- عمار ساسي، المدخل إلى النّحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ط01، 2007م.
- وليد مرادمحمد، نظرية النّظم وقيمتها العلميّة، دار الفكر، ط01، 1403هـ، 1983م.